إن جل الباحثين الذين اهتموا بالجانب الديني في المغرب الأقصى خلال العصر الحديث قسموا أنماط التفكير الديني للمغاربة إلى قسمين، فقه، تصوف، لذلك فأن الباحث في التراث الديني المغربي لا يمكنه أن يخرج عن النطاقين (الفقه والتصوف)، وفي عصر ساد فيه التفكير الصوفي بل وأصبح الطابع الصوفي يظهر في كافة مظاهرة الحياة حتى أصبح فيه التصوف ينافس الفقه، فلا يصح الأول إلا بالثاني ولا يصح الثاني إلا بالأول، وقد نسب للإمام مالك قوله: «من تفقه ولم يتصوف فقد تفسق، ومن تصوف ولم يتفقه، فقد تزندق، ومن جمع بينهما فقد تحقق» [1].

وري عن الإمام مالك بن أنس، قال: « كنت عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال: إن لله عبادا ليسو بأنبياء ولا شهداء، يغبطهم الأنبياء والشهداء، وكان في ناحية القوم أعرابي فجثا على ركبتيه ورسا بيديه ثم قال: حدثنا يا رسول الله من هم، قال: فرأيت في وجه رسول الله البشرى فقال: هم عباد من عبد الله وفي بلدان شتى لم يكن بينهم أرحام يتواصلون بها، ولا دنيا يتبادلونها، يتحابون بروح الله، ويجعل الله وجوههم نورا ويجعل لهم منابر من نور من لؤلؤ قدَّام الرحمن، يفزع الناس ولا يفزعون ويخاف الناس ولا يخافون » [2].

يتبع سكان المغرب الأقصى والمغرب الكبير عموما مذهب الإمام مالك[3]، وكان نقليا، انتقل هذا المذهب إلى أفريقية (تونس) في عهد الأغالبة، ومن ثم تمكن في بلاد المغرب عامة بفضل مجهودات محمد بن سحنون[4] وأسد بن الفرات[5]، وعبد الله بن ياسين، وأبي الفضل بن النحوي[6] وكذا جهود الحماديين في المغرب الأوسط خلال القرن

---

[1] الحملاوي (عبد المجيد)، "لمحات حول التصوف وآثاره"، مجلة الشهاب الجديد، العدد03، السنة الثالث، دار الهدى، عين مليلة، 2004، ص265.

[2] عمر (عبد العزيز)، قطف الزهات من تاريخ توات، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985، ص58.

[3] مالك بن أنس الأصبحي المدني، (715– 795م) فقيه ومتكلم، ولد في المدينة ونشأ فيها أصله من أمراء حمير القحطانيين وهو أحد الأئمة الأعلام وصاحب المذهب المالكي أحد المذاهب الأربعة الكبرى في الإسلام، له كتاب **الموطأ**، وهو أساس المهذب المالكي؛ بطرس البستاني وجورج كرم وآخرون، مرجع سابق، ص55.

[4] عبد السلام سحنون (776– 854م)، فقيه مالكي ولي القضاء بالقيروان، اشتهر بكتابه «المدونة» في مذهب الإمام مالك طبع في مصر 1906م؛ المرجع نفسه، ص263..

[5] أسد بن الفرات (759– 829م) فقيه مالكي، تولى القضاء في القيروان واحتل صقلية، قرأ عن مالك بن أنس مباشرة، توفي بالطاعون في حصار سرقوسة؛ المرجع نفسه، ص389.

[6] ابن مريم لتلمساني، مصدر سابق، ص299؛ الطمار (محمد)، تاريخ الأدب الجزائري، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2006، ص111.

الخامس الهجري[7]، وإضافة إلى المذهب المالكي هناك مذاهب أخرى غير ذات أهمية كبيرة منها الأباظية والظاهرية والمعتزلة والشيعة.

وقد اشتهرت في بلاد المغرب كتب المالكية ولعل أهمها كتاب **الرسالة** لابن أبي زيد القيرواني (ت996م) وكتاب **مختصر خليل بن إسحاق**، وهو كتاب متون موجزة، وهو أكثر كتب الفقه تداولا في كامل شمال إفريقيا منذ القرن الرابع عشر الميلادي، ويحضى بتقدير خاص لدى العلماء، وبعض الطلبة الريفيين يعتبرون مؤلفه وهو خليل بن إسحاق[8] هو مؤسس الفقه الإسلامي، وكذا مختصر ابن الحاجب، وعادة ما كان الفقهاء والعلماء يحفظونه عن ظهر قلب، وهو عمدة القضاء والفتوى والفقه لدى المغاربة[9]، وقد كان الفقهاء المغاربة كثيري التعصب لمذهبهم والتعصب لخليل، إذ أن مختصر خليل هو الحجة القوية عندهم، حتى انه حكي عن الشيخ اللقاني[10] يوما انه قال: « نحن أناس خليليون فإن ضل ضللنا » [11].

ورغم النتاج العلمي والديني في الجزائر والمغرب الغزير نوعا ما، إلا انه لا يدل بالضرورة على ازدهار الحركة العلمية عموما والدينية خصوصا، فالواقع أن هذا العصر عرف تحجر وركود الاجتهاد الديني عند معظم الفقهاء وركونهم للتكرار والترديد والحفظ عن ظهر قلب، فأصبح كل من يحكم العقل أو يعتمد الاجتهاد يرمى بالاعتزال، وكأن الاعتزال هو النزعة العقلية في الفكر الإسلامي[12]، وإن حرص أهل العم على تواتر الحديث والتسابق نحو الإجازات ليس دليلا على تقدم العلوم بل كان الكثير من الطلبة يميلون إلى ظاهر النقل ولا يكادون يشغلون العقل مرة، وهذا ما عبر عنه أحد العلماء في شعره:

خبرا عني المريد بأنني **** كافر بالذي قضته العقول

---

[7] عويس (عبد الحليم)، دولة بني حماد صفحة رائعة من التاريخ الجزائري، ط2، دار الصحوة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1991، ص255.

[8] خليل بن إسحاق بن موسى بن شعيب، ترجم له الشيخ احمد بابا السوداني بقوله: «القدوة الحجة الفهامة، حامل لواء المذهب بزمانه بمصر... إنه من أجناد الحالقة المنصورة، يلبس زيهم متقشفا منقبضا عن أهل الدنيا، جامع بن العلم والعمل»؛ عنه التمبوكتي (أحمد بابا)، نيل الابتهاج في تطريز الديباج، ج2، تحقيق عبد الحميد عبد الله الهرامة، ط1، منشورات الدعوة الإسلامية طرابلس، 1989، ص169.

[9] ألفرد بل، مرجع سابق، ص127.

[10] راجع أحمد باب السوداني، مصدر سابق، ص590.

[11] ابن مريم التلمساني المديوني، مصدر سابق، ص99.

[12] ألفرد بل، مرجع سابق، ص118.

ما قضته العقول ليس **** دين بل الدين ما حوته

وهذا ما عبر عنه الشيخ عبد الكريم الفكون القسنطيني بأبيات شعر وفيها:

فسد الزمان فأين أين المطلب **** وفشا الحرام فأي كسب أطلب

وتعامت العلماء عن شبهاتها **** فلمثل ذا فليتعجب المتعجب

من ذا نشاور في مراتب ديننا **** ومزلنا في ذا الزمان مؤدب[14].

الوجود المسيحي اليهودي في الجزائر:

تثبت الوثائق أن الجالية اليهودية كانت قوية خلال هذا العهد و أنها كانت تعيش في أهم المدن و خاصة عواصم الأقاليم و مدينة الجزائر نفسها، و جاء بعض اليهود أوربا إلى مدينة الجزائر في القرن 12 و استوطنها مثل عائلة البكري و بوشناق و كان يهود يشتغلون ببعض الصنائع الدقيقة و الثمينة كالخياطة و اختبار جودة الذهب و الفضة، وصل والى درجة كبيرة من النفوذ و الجاه في أخر القرن 12 و أوائل القرن 13 عشر، و كان منهم من يؤثر بالحياة السياسية الداخلية بالإضافة إلى اختبار العملية الرسمية و دخولهم إلى خزينة الدولة و كان لهم أصدقاء من أهل السلطة في اعلي المستويات و كان لهم تأثر في الحياة الاقتصادية و لم يكونوا في العاصمة فقط بل تجاوز إلى المدن الأخرى، أما عن نشاطهم الديني فقد كان مسموحا إلى حد ما غير أن عمليات التبشير والدعوة لديانة أو مذهب فلسفي غير الإسلام فقد كان ممنوعا منعا باتا، وقد ذكرت لنا المصادر الكثير من الوقائع كوقعة اليهود في مدينة توات بالصحراء الجزائرية.

---

(13) الجزائري (محمد بن ميمون)، التحفة المرضية في الدولة الباكداشية في بلاد الجزائر المحمية، تحقيق محمد بن عبد الكريم، ط2، الشركة الجزائرية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، 48.

([14]) الفكون (عبد الكريم بن محمد)، منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية، تحقيق أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1987، ص186.